من نفسيّة النكبة إلى نفسيّة الصمود والمواجهة

عصام مخّول*

ليست النكبة حدثًا في تاريخ الشعب الفلسطينيّ، بل هي السياق الذي جرى فيه هذا التاريخ على مدار أكثر من ستّة عقود مضت، وبات تاريخُ الشعب الفلسطينيّ الحديثُ هو خلاصة النضال المتواصل الواعي والباهظ الثمن للإفلات من هذا السياق. فالنكبة شكّلت زلزالاً سياسيًّا هائلاً كان يرمي إلى "إلغاء" الشعب الفلسطينيّ وتغييب حقوقه وإنزاله عن مسرح التاريخ، من خلال محوه من ذاكرة الوطن ومحو الوطن من ذاكرته. لقد جلب زلزال النكبة معه تغييرًا جذريًّا في الطوبوغرافيا السكّانيّة والجغرافيّة، وأعاد صياغة التضاريس السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة لفلسطين ولمنطقة الشرق الأوسط بأكملها، في ظلّ مؤامرة ابتغت الزجَّ بالشعب الفلسطينيّ -ومعه شعوب المنطقة- في نفق مظلم مسكون بنفسيّة النكبة، لا نهاية له ولا مخرج منه، إلاّ إلى الضياع واليأس، والانصياع لإستراتيجيات القوى الإمبرياليّة المهيمنة وأداتها إسرائيل، والخضوع لمشاريعها وأطماعها في المنطقة.

وباتت القضيّة الفلسطينيّة معركة مثابرة على التخلّص من نفسيّة النكبة ومن المفاهيم المهزومة التي ولّدتها، والانتقال من نفسيّة الاقتلاع والتهجير، إلى تمجيد معركة البقاء والتجذّر في الوطن، ومن نفسيّة الإحباط وغوث اللاجئين ومشاريع التوطين، إلى معركة حقّ العودة، ومن نفسيّة العجز أمام المؤامرة الكبرى على الشعب الفلسطينيّ، ووهْم "الفرج" الآتي من الأنظمة الرجعيّة العربيّة، والقبول بارتهان قضيّة فلسطين واحتجازها في قيود النظام العربيّ الرسميّ، إلى انتزاع استقلاليّة القرار وبَلْوَرة الخيار الفلسطينيّ ونشوء منظّمة التحرير الفلسطينيّة، ممثلاً شرعيًّا وحيدًا لهذا الشعب، المنطلق من تحت رماد النكبة ليجد نفسه أمام "النكسة" وهزال النظام العربيّ الرسميّ بعد هزيمة عام 1967 وانهيار الأوهام التي غذّاها.

واحتلّ الشعب الفلسطينيّ، في معركته التحرّريّة، موقعًا متميّزًا لافتًا أمام شعوب العالم وقواها التحرّريّة، وحَظِيَ بالتعاطف والتضامن الأمميّ الواسع، من خلال تحدّي الرعب والترهيب والإحباط الذي ولّدته مجزرة دير ياسين وأخواتها، مقدّمة للنكبة والتهجير واللجوء، ومن خلال التخلّص من أوهام الاتّكال على جيوش "الأشقّاء" العرب، والانتقال إلى مقاومة إرهاب الدولة ومجازرها، وإلى الانتفاضة الباسلة ومقاومة الاحتلال والاستيطان والجدار والتشبّث بالأرض. ومن خلال انتقال الأقلّيّة العربيّة الفلسطينيّة في داخل إسرائيل نفسها، من نفسيّة مجزرة كفر قاسم، التي سقط فيها الضحايا وهم يتوسّلون رحمة الجزّارين، إلى نفسيّة يوم الأرض الخالد (في الـ 30 من آذار عام 1976) الذي سقط الشهداء والجرحى فيه دفاعًا عن الأرض، في الجليل والمثلّث والنقب، وهم يحملون حجرًا

وإرادةً وحقًّا وموقفًا سياسيًّا واعيًا، شجاعًا ومسؤولاً، لا يساوم ولكنّه لا يغامر، لا "يطوش على شبر ماء"، ولا يطفو فوق مستنقع من الأوهام والعنتريّات والغيبيّات والمزايدات. لقد صاغت الأقلّيّة القوميّة العربيّة في إسرائيل "كجزء حيّ وفاعل ونشيط من الشعب العربيّ الفلسطينيّ"، وعبر مُراكَمة كفاحيّة مشرّفة، صاغت فكرها السياسيّ وأساليبها النضاليّة التي لا تستخفّ بالنضال السياسيّ ولا بالمقاومة الشعبيّة والوحدة الكفاحيّة، والدفاع عن الحقوق القوميّة والمدنيّة، بل تجعل منها خيارها الإستراتيجيّ القائم على إلقاء ثقلها في المعركة القوميّة والمدنيّة، الوطنيّة والديمقراطيّة، من موقعها كأقلّيّة قوميّة في داخل إسرائيل، وعلى ساحتها السياسيّة المعقّدة، معتمِدةً الأدواتِ السياسيّة والشعبيّة المتاحة لها على هذه الساحة، لا كضحيّة سلبيّة تكتفي بالتلقّي، وإنّما كأقلّيّة قوميّة مناضلة وواعية سياسيًّا، تُقارعُ مضطهديها وتَنتزعُ حقوقها في مواجهة سياسة الاضطهاد والتمييز القوميّ.

وفي المحصّلة، إنّ تاريخ القضيّة الفلسطينيّة في العقود الستّة الماضية، وبرغم الصعوبات والتعقيدات الآنيّة، هو تاريخ الانتقال من نفسيّة النكبة إلى نفسيّة الصمود والتصدّي والمواجهة، وإعادة صياغة المشروع الوطنيّ الفلسطينيّ وثوابت الحلّ العادل، بشكل جدليّ واقعيّ، والانتقال من حالة الارتباك أمام المؤامرة على حقوق الشعب الفلسطينيّ القوميّة، إلى موقع الهجوم، وفضح عناصر المؤامرة ومركّباتها الثلاثة: الإمبرياليّة، والصهيونيّة، والرجعية العربيّة؛ معًا وكلاً على حِدَة. لقد أصبح واضحًا، في الوعي الفلسطينيّ ووعي شعوب المنطقة وشعوب العالم، أنّ هذا الثلاثيّ هو الذي يتحمّل المسؤوليّة عن نكبة الشعب الفلسطينيّ، وعن الجرائم التي ارتكبتها الحركة الصهيونيّة ضدّ أهل فلسطين، وعن اقتلاعهم واغتصاب وطنهم وحقوقهم، كلّ بحسب وزنه ونفوذه وقدرته على التأثير. هذا الثلاثيّ ذاته هو الذي يتحمّل المسؤوليّة اليوم عن استمرار المؤامرة لمنع الشعب الفلسطينيّ من التحرّر والاستقلال، ولاحتجاز حقوقه القوميّة -وفي مقدّمتها حقّه في تقرير مصيره.

إنّ التاريخ الفلسطينيّ منذ منتصف القرن العشرين، هو تاريخ الانتقال من حالة الإحباط التي رافقت المؤامرة على وجود الشعب الفلسطينيّ، ماديًّا وسياسيًّا وثقافيًّا وحضاريًّا، في وطنه وخارج وطنه، إلى خيار التحدّي وتعميق حضوره الثوريّ اللافت، وتثبيت حقوقه غير القابلة للتصرّف، وانتزاع اعتراف عالميّ بحلّ قائم على مرتكزات ثلاثة متكاملة: إقامة دولة فلسطينيّة مستقلّة في حدود الرابع من حزيران عام 1967 وعاصمتها القدس الشرقيّة المحتلّة؛ الحلّ العادل لقضيّة اللاجئين على أساس قرارات الأمم المتّحدة؛ الاعتراف بالجماهير العربيّة الفلسطينيّة في إسرائيل أقلّيّةً قوميّة، وبحقّها في المساواة في الحقوق القوميّة والمدنيّة، تعيش بجدارة وعن استحقاق في وطنها الذي لا وطن لها سواه.

وإذا كانت الأوهام التي مُفادُها أنّ النكبة كفيلة بالقضاء على الشعب الفلسطينيّ وتغييب دوره وإنزاله عن مسرح التاريخ، إذا كانت هذه الأوهام قد سقطت، فإنّ الدوائر الصهيونيّة الحاكمة في إسرائيل تكثّف جهودها اليوم لإسقاط النكبة من التاريخ ومن الوعي الفلسطينيّ، ومحوها من الذاكرة من خلال تشريع "قانون النكبة " الذي يجرّم إحياء ذكراها ودروس المواجهة مع تبعاتها، حتّى إنّ تسيبي ليفني -وزيرة الخارجية الإسرائيليّة السابقة

ورئيسة حزب كاديما حاليًّا- كانت قد جاهرت بفظاظة (في مقابلة تلفزيونيّة عشيّة يوم "استقلال" إسرائيل الستّين): "إنّ على الفلسطينيّين أن يعوا أنّ استقلالهم لن يكون واردًا إلاّ بعد أن يقوموا بمحو مصطلح "النكبة" من قاموسهم". إنّ العلاقة بين قيام إسرائيل ونكبة الشعب الفلسطينيّ هي أشبه ما تكون بالعلاقة بين توأمين سياميّين، وُلِدا معًا، يتحرّكان معًا، يكبران معًا. وخلال السنوات التي انقضت منذ وقوع النكبة، عملت إسرائيل بصورة منهجيّة على التخلّص من توأمها، وإخفائه أو القضاء عليه، ولكنّ ذلك لم يكن ممكنًا، وهذا هو مصدر المأزق الإسرائيليّ؛ فقد أصبح واضحًا أنّ إسرائيل ليس في مقدورها التهرّب من مسؤوليّتها عن نكبة الشعب الفلسطينيّ دون الالتزام بحلّ عادل لنتائج النكبة وتبعاتها عليه.

* **عصام مخّول**- عضو الكنيست السابق، عضو المكتب السياسيّ للحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ، رئيس معهد إميل توما للدراسات الفلسطينيّة والإسرائيليّة